وجه المدينة

بقلم احمد هاشم الشريف

لقد استمر حديثنا ساعة ، او ما يقرب من ساعة ، واظن ان النقاش استغرق عقولنا فلم نحسب حساب الوقت ، وكان فتحي متكئا في عطلته على السرير ، وهو يرتعد من برد يناير وصوته الهادىء القوي السرات يتسلل الى سمعي ، وينفذ من خلال مسامعي ، اما انا فكنت اجلس على مكتبنا المشترك اصغي اليه وفي اعماقي عالم حائر مضطرب ، وفي يدي مرآة محطمة اعبث بها ، وكأني ارثي لحالها ، وكان صوتي جامدا ، بخيلا مثلي ، وخامسة عندما صحت فيه للمرة الثالثة :

— فتحي .. اسمعني .. لاتقاطعني .. اصغ الي اولا ثم تكلم كما يحلو لك .

ولكن فتحي لم يتوقف ، وكيف يتوقف؟ لقد كان حديثنا مائرا في البداية على ما اذكر ، ويبدو لي انه وصل الآن الى مرحلة تسمح بالانفجار ، وليست هذه حالة نفسية مناسبة لان اخبره فيها عن الخطاب الذي وصل من والده ، يهدده فيها بقطع المصروفات ان لم يترك المظاهرات ويرجع فورا الى الريف ، كما انها ليست حالة نفسية مناسبة لان اطلب منه ان ينتهي من هذا الحديث ويبدأ في تدبير مصيرنا ، مصيري انا ومصيره هو . فلا شك ان المناقشة الهبت اعصابنا ، وجعلت من الصعب استعمال عقولنا استعمالا مثمرا ، وعند ما يتسلل الماء من خلال ثغرة صغيرة هينة الاتساع ، فقد يكون في الامكان تدارك الامر ، وسد الثغرة . اما حين تتسع هذه الثغرة ، وتتحول الى فجوة واسعة المحيط ، فان تتمكن بسهولة من منع الماء المتدفق ، كذلك الحال عندما تكون أمام عود ثقاب ، فلا شك ان مهمة اطفائه في البداية اسهل بكثير من حالة اخرى ، تهمل فيها شأنه ، وتتركه يرعى في هشيم وحطب جاف .

وحتى الآن لم يتوقف فتحي عن الكلام ..

وبدأت اتململ ، وسمعت حركة خفيفة عند البادة ، واحسست بالرعب في بداية الامر لاني لم اكن اتوقعها ، وتطلعت اليها لاعين مصدر الصوت .. كانت المدخنة تهتز في الخارج وتحدث صريرا يشبه احتكاكها بالحائط ، كذلك الصوت الذي سمعته عند فتح الباب او اغلاقه ومعنى هذا ان الهواء بدأ يناوشنا

ليحطم ما تبقى من رحاح النافذة متمما لاعمالها .

وفى حركة عصبية سريعة اغلقت وانا التى مطرة آسفة على شارع عدلى ثم على القاهرة كلها ، وقد علمها الدخان وشملها سكون عميق ، وعدت الى مكانى لاعيث من جديد بالمرآة المحطمة وانظر اليها راثيا ، واتابع حديث متحى ..

ومع ان فى امكانا ان نتبين اسباب الوقائع الملموسة التى نعرض لها ، الا ان مشاعرنا لا تخضع لهذا القانون ، فنحن نشعر احيانا بالحيرة والقلق والانقباض دون ان ندرك لذلك سببا واضحا ، وقد كان هذا الاحساس يراودنى فى تلك اللحظة ، مع ترقبى لحدوث شىء هام يقضى على هذا القلق .

وللمرة الثانية سمعت حركة خفيفة ، حسبتها فى البداية صادرة من انفتاح الباب ، وتحولت عليا مدام روجيه .. صاحبة التنسيون ..

وتوقف متحى عن الكلام لاول مرة .

وتطلعت اليها ..

كانت ترتدى ثوبا بسيطا هادىء اللون ، كعادتها ، وكان وجهها الابيض يبدو صافيا ، وان شابه قليل من الاصفرار وكان شعرها الرمادى البديع يسدل على جبينها وعينيها الزرقاوين ، برغم محاولاتها المستمرة فى ضمه الى الخلف ، وباختصار لم يظهر تاثير الحادث على ملامحها بشكل واضح . وفى الفة معتادة جلست على طرف السرير ، فاضطر متحى الى الجلوس بعد ان كان مستلقيا تماما ، وان كان لم يتخل عن عطشه لشدة البرد وبدات مدام روجيه تهتم وهى تبسط كفيها الى اعلى فى شكر وابتهال ، وفهمت انهما فرحة بنجاة « التنسيون » من موجة الدمار التى اجتاحت المدينة ، ثم ما لبثت ان صاحت بلهجتها التى اعتدناها :

ــ هوه المصريين «متوحش» كده .. كله حريق ، كله قتل ونهب . البلد كله كله .. نحن متوحشون .. يلهما من كلمة ..

كنت مستعدا للرد عليها ، بحماسى ووطنيتى وايمانى ، وكنت مستعدا لان اشرح لها الظروف التى احاطت بنا ، والموقف الذى املت من يدنا ، والعناصر التى تدخلت وافسدت خطتنا ، ولكن صبرى كان اقوى من حماسى ، والى كان اعمق من ان افصح عنه وجرحى كان جرحا من الداخل ، يؤلمنى دون ان ينزف دما ..

ولم يكن متحى اقل منى وطنية ولا ايمانا ولا حماسا فى شرح الموقف لها ، ولكنه سكت . تبادل معى النظر وسكت كان هناك شىء فى داخلنا يفتر على حماسنا ، ويسمو على اندفاعنا ، ويدعونا الى الصمت ، واحيانا يكون ذلك اقوى وابلغ من اى حديث وانى لعلى يقين من ان الصمت مؤلم ، ولكن ذكر الحقيقة ، عادة يكون اشد ايلاما .

وطوال فترة سكوتى وانا اتطلع الى مدام روجيه .. كانت نظراتى تستريح على وجهها ، وعلى يحدق لها فى سمت وعيناى فى عينيها تكتشفان من حيرتى حيرتى من ذلك التناسق الذى اراه فى وجهها ، والذى يبرز ملامحها فى دقة محببة ، وحيرتى من ذلك الشعاع الحذاب

الذى يملأ فى عينيهـــا وحيرتى امام جمالها الاوربى الذى كثيرا ما ناقشـــت متحى فيه ، وتطور بيننا النقاش ، وهل الجمال الا تناسق فى التقاطيع ؟ وكان متحى يضحك بملء فمه احيانا ، وامرح فيه بصوتى الحاد :

ـــ فتحى . اسمعنى . لا تقاطعنى . اصبع الى أولا ثم تكلم كما يحلو لك .

واحيانا كان متحى يتهمنى ساخرا منى عندما اعترف له بحبى لمدام روجيـــه ، واسر له الحب بانه جاذبية ، وما دامت المدام جذابة ، ملا اســـــتطيع الا ان احبها .

ولم نكن ندرس الفلسفة او علم الجمال حتى ندور مناقشاتنا فى هذه المواضيع ، وانما كنا ندرس بكلية الحقوق ، وليس فيها ما يمت بصـــلة القربى الى هـــذه المناقشات ، اللهم الا اذا اعتبرنا القانون والاقتصاد والشريعة علوما ، تبحث فى الجاذبية وتناسق التقاطيع . ومع هذا فلقد كنت اهتم من كل شىء بوجهـــه ، الوجه فقط . واركز فيه كل ما يحببنى ، متحى يهمنى فيه وجهـــه ، اعرف منه ان كان راضيا ام ساخطا ، موافقا ام معارضا واركز فى عينيه صورة دقيقة لما يحدث فى اعمق اعماقه ، وعندما انظر اليه ، واستغرق فى النظر ، تبرح عيناى فى جبهته العريضة ، وشـــعره المرجل ، وعينيه الواسعتين بحاجبين موقوفا كانهما تاخذان من تلك التى تسمع عنهـــا فى الاساطير ... و .. «مدام روجيه» يهمنى فيها وجهها الناطق الجذاب ..

ومدينتى الجميلة التى اتطلع اليها كل يوم من هذه النافذة ، واتاملهـــا ، فى الصباح التى عليها مطرة واما ارتشـــف الشاى قبل ذهابى الى الكلية واراقب تورد خديها عندما تصحو وقد طوقتهـــا الشمس (تلك العلبة النحرية المستديرة) بعقد لا حصر له من الايدى الطـــويلة الشفافة ، وكانما هى عاشق يطوق حبيبته بعد طول غيبـــة ، ملا يكتفى بذراعين ، وانما يود لو طوقها بالف ذراع . واراقب امراح كتائبها وقصف مساجدها ، وقد عمرتها الشمس معا فى عدل ، واراقب منارتهـــا الطويلة الطيبة وهى تحمـــل عاديات الطبيعة ، وبيوتها القصيرة المكركرة وهى تتوارى وتختفى فى الشـــواهق . واراقب المدارس التى يمرح فيها صغارها فى امان ويدق جرس له دوى رتيب ، يجرعون منه فى البداية . ثم يطمئنون ثم يغمضون ايديهم عما هم فيه من لهو برىء ثم يقبلون على تحصيل العلم فى اوان الرجال الذين يدركون الفـــارق بين الجد والهزل ، ولم لا يكونون كذلك ومنهـــم المحامى الذى سيدافع عن هذه المدينة ، والمهندس الذى ســـيحمل وجهها والطبيب الذى سيعالج كهولتها ، ويحدد شيخوختها ويعيد النبض الى قلبها ، والضابط الذى ســـوف يحرس هدوء احلامها ويمنع القدم الغريبة من ان تدوس على طرف ثوبها .

والمســـــتشميات ، كل يوم اراقـــب المستشميات ، من هذه النافذة ، واتاملها لابد وان منها الآن مرضى قليلين ، وسيقل عددهم بالتدريج ، ولا بد ان فيهـــا الآن سيحولون بخطاهن على الشمة السعلى من الالم ، ثم يلدن صغارا يصرخون وهم يلعنون داخل الاغطية ويهدأون بعد ذلك عندما يضامهم عطر ارضنا الطيبة . ولا بد وانهم يمنون بعد ذلك ، كمـــا تمنو البذرة الدفينة فى باطن الارض ، وتصبح

شجرة هائلة ، تلفحهم شمسها فتتحول سحنتهم الى اللون الاسمر الحفيف . ويمضون من حين لحين فيبتعد من عيونهم ذلك البريق الاخاذ المريق ، ثم يصبحون مثل المئات والالوف والملايين التي تسير في هذه المدينة لهم رائحتهم ، وسلطانهم واقبالهم على الحياة .

كل يوم تدور في رأسي هذه الخواطر وانا اراقب وجه المدينة . واقول لنفسي وعلى شفتي شبح ابتسامة : بالله من وجه جميل يصارع وجه مدام روحيه .. ها هي جبهتها العسجية الممتدة .. وهاتان عيناها .. وهذا فمها الذي تتدفق منه الضحكة ..

وفي المساء التي تطرة سريعة على وجهها ، وأرى شواهقها وشلالها وابراجها وقد غمرها ذلك اللون البرتقالي البديع ، والهالة السحرية المثيرة تجمع الايدي الطويلة الشمالية بمحتهدة الا يفلت منها واحد ، وكأنما العاشق قد مل تطويق حبيبته طول النهار ، فانسحب في هدوء ليرحل الى حبيبة أخرى تهواها وتلهف على لقائها .

قالت مدام روحيه وهي تهم بالقيام

— طابتكم ايه .. عندي كل شيء .. الحمش مزل المدينة والنحول ممنوع ..

وشكرها منحي وهي تنصرف وتغلق الباب خلفها ، وانا لم انحرر بعد من سلطان سرحاني ! .

وشعرت من جديد بالحيرة والقلق والانقباض ، وترقب الحديث المنتظر ، وعاد منحي الى حديثه بعد ان انكمش مرة اخرى تحت العطاء وهو يرتعد من برد يناير ، وعدت انا اعبث من جديد بالمرآة وانظر اليها في رثاء

وانصت الى صوت منحي المختلط بصوت اهتزاز المدحمة ، وكان واضحا ان الاهتزاز قد زاد الآن كأنما هي (بلياتشو) سيفقد اتزانه ويسقط من الحبل من فوق الحبل لخطورة اللعبة التي يقوم بها .

ومنحي .. انه يحدثني الآن عن (عبد العطار) زميلنا في الكلية ، الذي تنص عليه النواميس وهو يطفيء النار في احد المصانع ، ويمنع المخربين من النهب والتدمير ، ثم يحدثني عن وطنيته واخلاصه ، وانا في حيرة من امري وامر منحي وامر زميلنا في المظاهرة ، الذي لا اعرف مصيره الآن ، واخيرا قلت :

— والآن لقد انتهى كل شيء .. لماذا لا تسافر غدا الى الريف ؟

— واترك عبد العطار ..

— وهل في امكاننا شيء ، ان القضية ليست قضية عبد العطار ، انها قضية الشعب الذي اودعوه السجن بتهمة الوطنية واطلقوا سراح المجرمين .

وعطرت الى ساعتي ، مادا يها الواحدة بعد منتصف الليل ، واخذت اتامل وجهها وعقاربها التي تتحرك في سلطوة مثير ، بالغا من اعبياء .. في البداية نطق انا احرار ، نجري هنا وهناك ، وفي كل اتجاه ، وفي النهاية نكتشف اننا ندور حول انفسنا ، كعقارب هذه الساعة ، ثم نكتشف ايضا اننا داخل علبة معلقة

وهز منحي راسه في اصرار على البقاء وعدم اقتناع بضرورة سفرها ، فاحترته بخطاب أبيه الذي يحمل له

التهديد ، اذ لم يكن امامي مفر من ذلك ، لكنه طلب الي ان ادبر له حيلة ، لأخرجه على الفور دون ان يكون هناك خطاب حقيقي ، وانطلق يؤكد لي اصراره على البقاء وعلى التظاهر من اجل عبد العفار ، والبحث عنه باية طريقة ، وباي ثمن .. وتطلعت اليه ..

تطلعت الى الزعيم الذي قاد مظاهرة اليوم احتجاجا على قتل عساكر بلوكات النظام في الاسماعيلية باخس طريقة يلجأ اليها مستعمر ، ووجدت امامي شابا يفكر ويصمم قبل ان يمر بمرحلة التفكير ، اي تفكير ، وتذكرت ان منحى — وايضا انا — هي السن التي يحلو لاصحابها ان يبدوا اكبر من اعمارهم ، ويحتالوا عقولهم ويخلقوا في سماء الامكن دون ان ان يرتكزوا الى سند من الواقع .

ومرت فترة صمت قصيرة ولكن قلقي اطالها ، ومنحى متكئ امامي على السرير لا يتحرك ولا يتكلم وانا جالس الى مكتبنا المشترك اعبث بالزهرة المحطمة .

وللمرة الثالثة سمعت حركة خفيفة ، واكاد اجزم انها جاءت من خلف الباب .. هل اقترب وقوع الحدث الذي كنت انتظره .. ؟

من القادم .. ما الذي يحمله لنا القدر يا ترى ؟

كان هناك احتمالان ..

الاول : ان تكون مدام روجيه ..

الثاني : ان يكون احد رجال البوليس السري ، جاء ليقبض علينا ..

وكان الاحتمال الاول ضعيفا ، وليس امامنا الا ان ننتظر لمصير مجهول ، كمصير عبد العفار .

الآن ، لقد انتهى كل شيء يا منحى . واقتربت نهايتنا ، ولم يبق الا ان تسمع طرقا خفيفا مؤدبا على الباب ، ثم دويا مروعا مخيفا ، ثم يتحطم الباب ويدخل البوليس ويقبض علينا ويسوقنا الى حيث يرقد عبد العفار ، ثم يوجه لنا تهمة الوطنية .. ويالها من تهمة .. ها هو خطاب امك يا منحى .. انه خطاب حقيقي كنت احتبته عنك حتى لاتنزعج. اقراه لصدقي .. اقراه لسائر بعيدا الى الريف .. ونحو بوطنيتنا .

لكن منحى لم يتحرك ، ولم يحس بالرصاص او القنبل ، وتركني امارع الم الحيرة وحدي .. ماذا دهاه ؟ ربما ادهشه الفاجاة ، وربما باغته الصوت المتلصص خلف الباب كما باغتني ولعله تجمد الآن من الرعب ، لا من برد يناير ، وهو يتصور نفس المصير الذي تصورته ، سوف لا يرحموننا عندما يقبضون علينا .

وان يهجم عليك انسان ما ويقتلك في الحال خير الف مرة من عذاب الانتظار ، والفار يتعذب من مداعبات القط الذي اصطاده . يتعذب وهو يهرب قبلاحته بمخلبه ، ويتعذب عندما تلامسه شوارب القط واسنانه دون ان يناله اذى ، والذي يعذبه شيء واحد هو الامل . الامل في ان ينجو مع انه يعلم المسبحة مقدما ، والامل في ان يعيش وهو يرى نفسه في دوامة الموت ، والمحكوم عليه بالاعدام صوت الف مرة قبل ان يلتف الحبل حول رقبته ، وفي كل مرة يتعذب ايضا ... الامل يعذبه .

وانا ومنحى .. ما ذنبنا حتى نتعرض لهذا العذاب ؟

رتبت أموري ، وقررت أن أسلم نفسي بلا جدال وبدون ضجة ، حتى لا تشعر بدام روحيه وتظن أنني من المجرمين . . .

لست مجرما . لم أسرق . لم أقتل . لم أحارب . . تطاهرت ؟؟ نعم تظاهرت . .

لست خائفا حتى أنكر ذلك .

وفكرت في المقاومة . .

لكن عددهم كبير ولكني سأقاوم ، ستكون معركة غير متكافئة ، يلتهم القوى

فيها الصيف ، ولكن المهم ان اقاوم ، فالصيف يحارب بقوتين : قوته الطبيعية ، وقوة الدفاع عن كرامته وصحته ضد طغيان القوى .

وفتحت الباب .. ولم اجد احدا ..

آه .. لقد احتفلوا بمنى في الظلام ليوهموني بالحرية والامن ، حتى يطيلوا عذابي ..

وصحت اسأل عن الطارق ، واجابني الصدى ..

وفي سرعة اغلقت الباب ، وانا مرح بالضحك ، وبأن كل ما سمعته كان وهما ، انها السرعة التي تسيطر على اعمالنا عند ما نسمع شيئا جديدا مثيرا مفاجئا ، كالنجاح في الامتحان ، والرسوب ووقوع حادث تصادم ، ووفاة احد الاعزاء .. واقفلت على فتحتي لاطمئنه بالصحة ؛ ولكنه لم يتحرك من مكانه ، ولدهشتي وجدته مستمرا في النوم . اذن فهو لم يكن مستيقظا في الدقيقة ولم يسمع صوتا ، ولم يتجند من الرعب ، ولم يتصور نفس المصير الذي تصورته .. ومن يدري ربما لم يكن هناك صوت على الاطلاق ..

وعدت الى المقعد ، ووقفت اتامل الخارج بعد الكارثة . كان الليل يحتضر المدينة في لوعة ، كأم مذهولة تعانق ولدها المريض ، والظلام يضفي على اعلى ملامحها ، وكأنه ضمادات سوداء تحيط بجراحها الغائرة ، والقباب الحميلة والابراج الشاهقة تبدو لي من بعيد كأشباح حزينة في ملابس الحداد ، والمدارس سوف لا يدق فيها الناقوس الذي ينبه صغارنا الى وقت الدرس ، والمستشفيات لابد وانها ملأى الآن بالجرحى والمصابين ، والشوارع الرتيبة والاضواء الخافتة والصحة المتصلة لا وجود لها الآن ، تلاشت الزينة وخبت الاضواء وماتت الضحكة .

تركت المقعد ، واقمت لحظة ، فمت بعدها لاحد سوء النهار يعمر الحجرة ، والمدخنة مازالت مهتز ، ومنضدي امامي حقائبنا للسفر ، وكأن قد استيقظ قبلي ، وعرا الخطاب ، وادرك الامر على حقيقته ، وفي ظل حالة نفسية اخرى غير تلك التي كانت تسود المناقشة في الليل ..

وتناولت المرآة المحطمة من فوق مكتبنا المشترك ، وانا مصر على ضرورة احدهما بعضا ، نعم هي محطمة ، وقد اصبحت بها دون متعمة نظرة من الرضى ، ولكن سيأتي الوقت الذي اجمع فيه اطرافها ، واعيدها الى سيرتها الاولى ، واجلوها حتى تبدو صافية رائقة في بياض خدام روحيه ..

وبعد نصف ساعة تقريبا وصلنا الى المحطة ، وتحرك بنا القطار ، ولم استطع منع نفسي من القاء نظرة اخيرة على وجه المدينة .

كان الضباب الذي ينكاثف عادة في الصباح يخفي عني اعلى ملامحها ، جبهتها المسيحة وخديها المتوردين ، فلم الحظ شيئا يتصل بجمال وجهها ، ولكني لمحت بدخنة على مرمى البصر .

وتذكرت المدخنة المتصلة بجوار مقعده حجرتنا ، واهرازها المستمر ، والبلياتشو الذي سوف يسقط حالا من فوق الحبل .. اذ كانت اللعبة خطرة .